أسلوب التفكير فى الأزهر

ومنزلته من تطور العقل الانسانى

بقلم الاستاذ أحمد توفيق عياد

تشاهد مصر منذ أعوام مأساة مفجعة، تدور رحاها حول المشادة بين نزعتين فى التفكير: نزعة التجديد التى أفادنا الغرب فى تكوينها وبثها فى عقولنا المصرية، ونزعة التفكير التى يسير عليها علماء الأزهر. وفى الأمس اتهم كثير من أحرار الفكر بالزيغ والخروج عن الدين؛ واليوم نسمع هذه التهمة تتردد كثيراً على الألسن، وينبعث صداها من جوف الأزهر. والأزهر حقيقة هو موئل الدين وحماه، ولكن الدين برىء من الجمود والتعصب، وموقف الدين الاسلامى الحنيف — من الدعوة إلى حرية الفكر والنظر إلى هذا العالم نظرة المتأمل الحكيم، والبحث عما يعمر النفس بالايمان الحق واليقين الصادق — موقف يكال هامة الاسلام بشىء كثير من الفخر والاعجاب.

ومرجع هذا الخلاف يعود — كما يتبين للباحث — إلى اختلاف بين أسلوب التفكير فى الأزهر، وأسلوبه فى غيره من الهيئات الجامعية الحديثة. ولقد عمر الأزهر إلى الآن ما نيف على الألف عام، انقلب العالم فى أثنائها انقلاباً تاماً، وتغير كل شىء على وجه البسيطة؛ والانسان فى العصر الحاضر يوشك أن يكون مختلفاً عنه فى العصور الخوالى. وليس من المبالغة أن يقال إن الانسان فى أيامنا يغاير أخاه فى القرون الوسطى مغايرة تشمل التفكير والنظر والحس. والبيئة الاجتماعية والسياسية قد تحولت وتطورت كثيراً عما كانت عليه من قبل. ومن التعسف أن نرهق النفس ونثقلها لتحيا فى هذه البيئة الجديدة، بالاستعداد والكفايات التى استطاعت أن تعيش بها فى القديم، وإنها لن تستطيع بها حياة فى عهدنا الحاضر الذى تغيرت معالمه وتبدلت شئونه.

ولقد اتجهت النية الطيبة إلى إصلاح الأزهر وتجديده، فكان الاصلاح كله موجهاً إلى الشكل، لا إلى اللب، يتناول العرض، ولا يمس الجوهر: ولقد كتب أحد الكتاب فى مصر يومئذ إلى الكليات التى أنشئت فى الأزهر، والألقاب الجديدة التى أسبغت عليه، فقال: إن هى إلا أسماء سميت، لا أكثر ولا أقل؛ والإصلاح لا يكون بتغيير الأسماء وإبدالها؛ إنما الإصلاح الذى يفيد الأزهر وينتفع به، لابد أن يكون موجهاً — أولا وقبل كل شىء — إلى

تغيير أسلوب البحث العلمى فيه تغييراً يعمل على تكييف الفكر الأزهرى ، بحيث يتمشى مع تطور العصر الحاضر ، ولقد كتب الأستاذ (Thwing) فى فصل عقده عن الأزهر فى كتابه (Universities of the world) ينعى طريقة التدريس بالأزهر، ويقرر أنها لا تساعد مطلقاً على إبراز الشخصية فى المتعلم ، فيتخرج الطالب فيه ، ولا تزال كفاءاته الفطرية دفينة فيه ، مقبورة لايستطيع لها انبعاثاً ، وكل ماتؤدى إليه هذه الطريقة فى الدرس، إفساد القوى العقلية وتحويلها دون صفاء العقيدة وصلاحها . والمدرس هو كل شىء فى الأزهر : أما الطالب فلا خطر له ، وهو يقرر أشياء أكثر من هذا لا يعنينا أن نقف أمامها كثيراً ، غير أن يصف الإنسان العلاج بعد تشخيص المرض ، من أن يدأب يشنع بأعراض هذا المرض .

ويضطرنا البحث عن هذا إلى الرجوع إلى الفكر الإنسانى نستعرضه مسرعاً ، حتى يصل إلى مكان الفكر العربى ومركزه منه ، وليكن الاستعراض مقصوراً على ما كان له اتصال مباشر ، أو غير مباشر بالتفكير العربى الذى يتمثل الأزهر فيه .

وليس من شك فى أن الفرس من ناحية ، واليونان من ناحية أخرى ، كانتا من العوامل الهامة فى تكوين العقلية العربية وتشكيلها ، « ولقد كان للفرس دين ، وكان لهم حكمة ، وكانت لهم عقلية ، وكان للروم دين وعلم وعقلية ، وقد أثر هذان العاملان أثراً كبيراً فى الأمة الإسلامية » .

وأثر اليونان هو الذى يعنينا كثيراً ، فهو الذى يرشدنا إلى حقيقة الفكر الحديث فى العرب .

وليس من شك كذلك فى أن التفكير الإنسانى يتأثر كثيراً بالعوامل السياسية والاجتماعية، التى ينشأ تحت وطأتها الإنسان ، وأن العقل الإنسانى يسير جنباً إلى جنب مع هذه الظروف السياسية ، والاجتماعية ، والدينية ، والفنية للأمم . ولقد انحط الفكر الانسانى وفقد كماله ، بعد أرسطو ، حيث ضاع استقلال اليونان السياسى ، وضعف فيها الروح الفلسفى ، بعد سلطان مقدونيا عليها وحكم الرومان لها ، وأصبح الباعث على التفكير دقيقاً أحس به الفرد ، فأراد أن يتسلى عنه ، فأصبحت الفلسفة بهذا شخصية ، بعد أن كانت عالمية ، وصار الانسان هو المحور الذى يدور حول التفكير ، بعد أن كانت الفكر لا تستقر بحثاً فى كل ظواهر الكون وقوانينه . وأهم الفرق التى قامت بعد أرسطو فرقتان (١) الرواقيون (٢) الأبيقوريون .

وأهم ما يمتازان به كله الابتكار ، والخلق .

ولمذهب الرواقيين أثر كبير فى المسلمين؛ لأنه أميل إلى التصوف واحتقار الحياة وشهواتها؛ وأسس هذا المذهب (زينون) الذى مات سنة ٢٦٤ ق .م، ويقال: إن سبب اشتغاله بالفلسفة اعتداء جلب الفقر إليه ، فقد كان غنياً موسراً من كبار التجار فذهبت تجارته فعاد إلى الفلسفة: ففى سنة ٣٠٠ ق . م أسس مدرسة ، وبنى فيها رواقاً جميلا مزخرفاً ، ومن أتباعه الرواقيين ، ومات منتحراً .

ومن أهم تعاليم هذه المدرسة : نظريتهم فى المعرفة التى تقول بأن الحواس طريق المعرفة ، والحقائق فى هذا الكون لا تدرك من غير طريق الحواس ، ولو جرد الإنسان من حواسه كلها ، لا يمكن أن يصل إليه شىء من العلم؛ وهى بهذا تهزأ بالميتافيزيقا (مابعدالطبيعة)؛ وتقف وأفلاطون على طرفى نقيض ،لأنه ينكر بالمرة الإدراك الصحيح من طريق الحواس . وتهتم الفلسفة التجريبية الحديثة بشرح هذه النظرية ؛ والعقل بهذا فى رأيهم قابل لا فاعل ، والفاعل هى الحواس ، والحق هو مايعتقده الإنسان حقاً، وفق مايرى ، مادامت الحواس يتعذر تشابهها.

وكانوا يرون أن العالم وحدة ، وأن الله ليس شيئاً منفصلا عن العالم ، فهم قريبو الشبه بأصحاب مذهب الحلول فى التصوف الاسلامى ، وقالوا إن الله هو العقل المطلق ، والعالم مسير بالعقل والحكمة ، وإن العالم مربوط برابطة السبب بالمسبب .

وقالوا : إن الفضيلة هى السير وراء العقل، كما يقرر أرسطو ، ولكن الفرق بين الاثنين أن هذا يحترم الشهوات ويخضعها لارادة الإنسان ، وأولئك ينكرون الشهوات ويعملون على إبادتها ، ويعدونها شراً محضاً ؛ وكانت حياتهم حرباً شعواء على العقل والشهوات ؛ ومن أجل هذا كانت حياتهم تنتهى بالزهد والتقشف والعزوف عن الحياة ، مما أدى إلى اختلال التوازن فى قوى الإنسان وملكاته ؛ ولكنهم لم يستطيعوا السير وراء هذه التعاليم الجامدة ، فقرروا فى النهاية أن إبادة الشهوات موت مطبق .

والحق أن الرواقيين لم يزيدوا فى الفلسفة شيئاً جديداً يؤبه له ، وكل مزيتهم أنهم كانوا قساة على أنفسهم . وتعاليمهم تنظر إلى النفس والبحث عما يتملق بها وكيف تعيش . وترتكز أفكارهم فى القلب ، وليس لها شأن بالعالم ، وهى فلسفة متشائمة حزينة تنتهى باليأس عادة ، أو بالايمان الذى يشبه الانتحار فى بعض وجوهه .

وأما الابيقوريون فقد أردف اسمهم باسم الشهوانيين وهو مخالف للواقع ، فانهم قالوا إن كل عمل منشؤه اللذة والألم ،ولاخير إلا اللذة ، ولا شر إلا الألم ، ولكنهم كانوا يغلبون اللذات العقلية والروحية ، وقنعوا بإشباع شهوات قليلة ؛ حتى كانت حياتهم بسيطة متبسمة باشة.

وهذا المنحى الفلسفى فى التفكير جعل بحث الإنسان منصرفاً إلى نفسه ؛ وجعل الذاتية مدار

تفكيره ، وهى تفكير العقل فى نفسه . وهذا النوع من التفكير يؤدى إلى الشك ؛ فالمعرفة علاقة العقل بما فى الخارج ، فاقتصار الباحث على دائرة النفس ، مهملا ما فى الخارج ، يؤدى إلى إنكار ما فى هذا الخارج ؛ ومن هنا يأتى الشك ؛ وعلى هذا ظهرت «مدرسة الشكاك» ، وهى مزيج من الأبيقورية والرواقية ، وترمى إلى تقرير استحالة الوصول إلى الحقائق وعدم إمكان الوصول إليها . ومن أشهر ما ينسب إلى أحد مؤسسى هذه المدرسة قوله : إن البرهان عبارة عن مقدمتين ونتيجة : فأنا أبرهن على النتيجة بمقدمتين ، وكل مقدمة تحتاج إلى برهان ، وبرهان نتيجة هذه المقدمة يحتاج إلى مقدمتين ، كل منها تحتاج إلى برهان ، وهكذا يستمر الدور وتكون سلسلة أسباب لا نهاية لها . وقال أيضاً : إنه لا يمكن أن نقول إن رأينا فى الشىء هو كالشىء نفسه .

وقد أوردنا هذه الكلمة عن تطور الفكر فى هذا العصر ، لنصل إلى الأفلاطونية الحديثة ، التى يهمنا الكلام عنها ، فهى الخطوة التى أعقبت ذلك ، وهى التى عملت كثيراً فى جمع الفكر العربى وتشكيله .

وقد رأينا أن أغلب هذه التعاليم الأفلاطونية بعد أن عملت فيها الشيعة وحاولت تطبيقها على دعوتهم ، كانت تدرس بالأزهر أيام الفاطميين ؛ ورأينا أن إخوان الصفا استمدوا تعاليمهم منها ؟

[للبحث بقية] أحمد توفيق عياد

اطبعوا مطبوعاتكم

فى

مطبعة المعرفة

فهى مستعدة لطبع الكتب والمجلات والجرائد بغاية الدقة والإتقان

الإدارة : رقم ٤ شارع عمر العزيز بالقاهرة